الفصل الثاني

العلم في القرآن الكريم

أشاد القرآن الكريم بالعلم ، وركز على حملته ومكانتهم ، وبيَّن فضله وفوائده في الدنيا والآخرة .

وقد تكررت كلمة العلم في القرآن (٧٥٠) سبعمئة وخمسين مرة ، أي أكثر من (١/ ٨) : ثُمُنَ القرآن ! !

وأول الآيات التي أُنزلت على قلب رسول الله ﷺ ، فيها دلالات رائعة من حيث إنها وردت بأسلوب التحاور العلمي ، محاورة بين أمين وحي السماء (جبريل) عليه السلام ، وبين أمين وحي الأرض والسماء محمد بن عبد الله ﷺ .

وفي هذا الحوار العلمي نرى المقام العالي للعلم ولأهله ، قال الله تعالى في ذلك : ﴿ ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ﴿١﴾ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ﴿٢﴾ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ﴿٣﴾ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ﴿٤﴾ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾[1] [العلق : ١-٥] .

أجل ، إنها صيغة الأمر والوجوب للنبي ﷺ بالقراءة والعلم والتعلم ، وباسم ربك الذي خلق ، لتتشرف التلاوة باسمه سبحانه ، ولأن القراءة

---

(١) للتوسع في قصة بدء الوحي ، يراجع سيرة ابن هشام : ١/ ٢٥٤ ، تاريخ الطبري : ٢/ ٣٠٢ ، صحيح البخاري : ١/ ٣ ، طبقات ابن سعد : ١/ ١٩٤ .

هي التي توصل الإنسان إلى التعلم والتقصي والاهتداء إلى حقائق الدنيا والآخرة .

ثم أكد المسألة بقوله مرة ثانية : ﴿ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ﴾ أي أكرم الإنسان على سائر المخلوقات بمسألة العلم والذي من أدواته القلم : ﴿عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ﴾ ، وفي موضع آخر ـ وهو من أوائل ما نزل من القرآن الكريم ـ يقسم الله تعالى بالقلم ، ليلفت النظر إلى قيمته وأهميته ، قال الله تعالى : ﴿ نٓ وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ﴾ [القلم : ١] .

﴿ عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾ فله الفضل سبحانه في مسألة تعليم الإنسان كل ما كان يجهل ، ثم تظهر أهمية العلم في القرآن الكريم عن طريق طرح عددٍ من الأمور المتعلقة به ، مثال ذلك : أن الذين يخشون الله سبحانه هم الذين يعلمون ، وأما الجاهلون فلا يعرفون قدر الله ولا يقدرون عظمته ، لذلك لا يخشونه ، وقد قال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه : كفى بخشية الله علماً ، وكفى بالاغترار بالله جهلاً .

قال الله تعالى : ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ﴾ [فاطر : ٢٨] .

قال الإمام ابن كثير (ت : ٧٧٤هـ) رحمه الله تعالى :

. . . أي إنما يخشاه حق خشيته العلماء العارفون به ، لأنه كلما كانت المعرفة للعظيم القدير العليم الموصوف بصفات الكمال المنعوت بالأسماء الحسنى ، كلما كانت المعرفة به أتم والعلم به أكمل ، كانت الخشية له أعظم وأكثر .

قال ابن عباس رضي الله عنهما : العالم بالرحمن من عباده من لم يشرك شيئاً ، وأحلَّ حلاله وحرَّم حرامه ، وحفظ وصيته وأيقن أنه ملاقيه ، ومحاسب بعمله .

وقال سعيد بن جبير : الخشية هي التي تحول بينك وبين معصية الله عز وجل .

وقال الحسن البصري : العالم من خشي الرحمن بالغيب ، ورغب فيما رغب الله فيه ، وزهد فيما سخط الله منه[1] .

والذين يصلون إلى مرحلة خشية الله لهم جزاء كبير عند الله : ﴿ جَزَآؤُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُۥ ﴾ [البينة : ٨] .

ولن يصل جاهل إلى مرحلة الخشية لله ، لأن بين العلم وأهله ، وبين الجهل وأهله ، فرق شاسع ، فهما لا يستويان ، قال الله تعالى : ﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [الزمر : ٩] .

أبداً لا يستوون ، لأن العالمين شهدوا مع الملائكة ومع الله بالوحدانية ، وأما غيرهم من الجاهلين فقد أشركوا مع الله آلهةً أخرى!! قال تعالى : ﴿ شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ [آل عمران : ١٨] .

وعلَّق الإمام ابن قيم الجوزية (ت : ٧٥١هـ) رحمه الله تعالى على هذه الآية بقوله :

. . . استشهد سبحانه وتعالى بأولي العلم على أجل مشهود عليه ، وهو توحيده ، وهذا يدل على فضل العلم وأهله من وجوه :

أحدها : استشهادهم دون غيرهم من البشر .

والثاني : اقتران شهادتهم بشهادته .

والثالث : اقترانها بشهادة ملائكته .

---

(١) تفسير القرآن العظيم : ٥/ ٥٨٠-٥٨١ .

والرابع : أن في ضمن هذا تزكيتهم وتعديلهم ، فإن الله لا يستشهد من خلقه إلا العدول ، ومنه الأثر المعروف عن النبي صلى الله عليه وسلم : « يحمل هذا العلم من كل خَلَفٍ عدولُهُ ، ينفون عنه تحريف الغالين ، وانتحال المبطلين ، وتأويل الجاهلين » .

الخامس : أنه وصفهم بكونهم أولي العلم ، وهذا يدل على اختصاصهم به ، وأنهم أهله وأصحابه ، ليس بمستعار لهم .

السادس : أنه سبحانه استشهد بنفسه ، وهو أجلُّ شاهدٍ ، ثم بخيار خلقه ، وهم ملائكته والعلماء من عباده ، ويكفيهم بهذا فضلاً وشرفاً .

السابع : أنه استشهد بهم على أجلِّ مشهود به وأعظمه وأكبره ، وهو شهادة أن لا إله إلا الله ، والعظيم القدر إنما يستشهد على الأمر العظيم أكابر الخلق وساداتهم .

الثامن : أنه سبحانه جعل شهادتهم حجة على المنكرين ، فهم بمنزلة أدلته وآياته وبراهينه الدالة على توحيده .

التاسع : أنه سبحانه أفرد الفعل المتضمن لهذه الشهادة الصادرة عنه ومن ملائكته ومنهم ، ولم يعطف شهادتهم بفعل آخر غير شهادته ، وهذا يدل على شدة ارتباط شهادتهم بشهادته ، فكأنه سبحانه شهد لنفسه بالتوحيد على ألسنتهم وأنطقهم بهذه الشهادة ، فكان هو الشاهد بها لنفسه إقامة وإنطاقاً وتعليماً ، وهم الشاهدون بها له إقراراً واعترافاً وتصديقاً وإيماناً .

العاشر : أنه سبحانه جعلهم مؤدِّين لحقه عند عباده بهذه الشهادة ، فإذا أدَّوها فقد أدَّوا الحق المشهود به ، فثبت الحق المشهود به ، فوجب على الخلق الإقرار به ، وكان ذلك غاية سعادتهم في معاشهم ومعادهم ، وكل من ناله الهدى بشهادتهم وأقرَّ بهذا الحق بسبب شهادتهم ، فلهم من

الأجر مثل أجره ، وهذا فضل عظيم لا يدري قدره إلا الله ، وكذلك كل من شهد بها عن شهادتهم ، فلهم من الأجر مثل أجره أيضاً .

فهذه عشرة أوجه في هذه الآية(١) .

ومن خلال تكريم القرآن الكريم لمسألة العلم ، نراه يقرنه بالأمور الفاضلة ، مثال ذلك : ربط العلم بالإيمان ، ليدل على المكانة المرموقة للعلم ، والتي تساوي مرتبة الإيمان ، قال تعالى :

﴿ لَّٰكِنِ ٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلْعِلْمِ مِنْهُمْ وَٱلْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَٱلْمُقِيمِينَ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱلْمُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ أُوْلَٰٓئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ [النساء : ١٦٢] .

وربط القرآن الكريم العلم بالدعاء ، كما قال الله تعالى : ﴿ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴾ [آل عمران : ١٩١] .

وقرن الله تعالى بين العلم والحكمة ، ليدل على المكانة المرموقة للعلم ، قال تعالى : ﴿ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾ [آل عمران : ١٦٤] ، وربط بين العلم والتعقل ، قال تعالى : ﴿ وَمِن ثَمَرَٰتِ ٱلنَّخِيلِ وَٱلْأَعْنَٰبِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ [النحل : ٦٧] .

وربط بين العلم والبرهان والنور ، قال الله تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُم بُرْهَٰنٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا ﴾ [النساء : ١٧٤] .

وربط القرآن الكريم بين الدعوة إلى الله وبين العلم ، قال الله تعالى : ﴿ قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِيٓ أَدْعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِي وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ [يوسف : ١٠٨] .

---

(١) مفتاح دار السعادة : ١/ ٤٩-٥٠ .

وقرن الله تعالى بين العلم والخاتمة الحسنة ، قال الله سبحانه وتعالى : ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُبَوِّئَنَّهُم مِّنَ ٱلۡجَنَّةِ غُرَفٗا تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ نِعۡمَ أَجۡرُ ٱلۡعَٰمِلِينَ﴾ [العنكبوت : ٥٨] .

وربط القرآن الكريم العلم بالأمانة ، فقال الله تعالى : ﴿ إِنَّا عَرَضۡنَا ٱلۡأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَٱلۡجِبَالِ فَأَبَيۡنَ أَن يَحۡمِلۡنَهَا وَأَشۡفَقۡنَ مِنۡهَا وَحَمَلَهَا ٱلۡإِنسَٰنُۖ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومٗا جَهُولٗا﴾ [الأحزاب : ٧٢] .

ويطالعنا القرآن الكريم ـ وهو يتحدث عن قصص الأنبياء ـ بالتركيز على قيمة العلم من خلال أن جميع الرسل والأنبياء آتاهم الله العلم :

فشيخ الأنبياء نوح عليه السلام جادل قومه بالعلم والحجج والبراهين ، لذلك لم يستطيعوا الوقوف أمام ذلك ، فما كان منهم إلا العناد والتكذيب :

﴿ يَٰنُوحُ قَدۡ جَٰدَلۡتَنَا فَأَكۡثَرۡتَ جِدَٰلَنَا فَأۡتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ إِنَّمَا يَأۡتِيكُم بِهِ ٱللَّهُ إِن شَآءَ وَمَآ أَنتُم بِمُعۡجِزِينَ﴾ [هود : ٣٢-٣٣] .

وخليل الرحمن إبراهيم عليه السلام يحاور أباه (آزر) ويقيم عليه الحجة ، ويريد منه أن يتبعه ، لأن الجاهل هو الذي يسير وراء العالم ، وكيفما كان الحال ، وحتى لو كان الولد متعلماً والوالد جاهلاً ، قال الله تعالى على لسان إبراهيم عليه السلام : ﴿ يَٰٓأَبَتِ إِنِّي قَدۡ جَآءَنِي مِنَ ٱلۡعِلۡمِ مَا لَمۡ يَأۡتِكَ فَٱتَّبِعۡنِيٓ أَهۡدِكَ صِرَٰطٗا سَوِيّٗا﴾ [مريم : ٤٣] .

وفي قصة يوسف عليه السلام حديث طويل حول مسألة فضل العلم :

فحينما رأى الرؤيا ، قال له والده مبشراً بالعلم : ﴿ وَكَذَٰلِكَ يَجۡتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأۡوِيلِ ٱلۡأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعۡمَتَهُۥ عَلَيۡكَ وَعَلَىٰٓ ءَالِ يَعۡقُوبَ كَمَآ أَتَمَّهَا عَلَىٰٓ أَبَوَيۡكَ مِن قَبۡلُ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡحَٰقَۚ﴾ [يوسف : ٦] .

وعن طريق العلم وصل يوسف إلى الحكم ، فعلمه بتأويل المنامات

وتفسيرها هو الذي أظهر براءته من التهم ، وهو الذي أوصله إلى خزائن الدولة وقتئذٍ : ﴿ إِنَّكَ ٱلْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ ﴿٥٤﴾ قَالَ ٱجْعَلْنِى عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِ ۖ إِنِّى حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴾ [يوسف : ٥٤ـ٥٥] .

وأما نبي الله موسى عليه السلام ، وهو من أولي العزم عليهم الصلاة والسلام ، فقد هيأه الله تعالى عن طريق الحكمة والعلم ، قال سبحانه وتعالى : ﴿ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَٱسْتَوَىٰٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ [القصص : ١٤] .

وكذلك في قصة داود وابنه سليمان عليهما السلام ، نرى حديثاً مستفيضاً عن العلم : ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ عِلْمًا ۖ وَقَالَا ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٥﴾ وَوَرِثَ سُلَيْمَٰنُ دَاوُۥدَ ۖ وَقَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ ٱلطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَىْءٍ ۖ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْمُبِينُ ﴾ [النمل : ١٥ـ١٦] .

وفي قصة سليمان عليه السلام مع بلقيس ، يؤكد القرآن الكريم على أن (الذي عنده علم من الكتاب) استطاع أن يسبق العفاريت في الإتيان بعرش الملكة بلقيس : ﴿ قَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَيُّكُمْ يَأْتِينِى بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِى مُسْلِمِينَ ﴿٣٨﴾ قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ ۖ وَإِنِّى عَلَيْهِ لَقَوِىٌّ أَمِينٌ ﴿٣٩﴾ قَالَ ٱلَّذِى عِندَهُۥ عِلْمٌ مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ ۚ فَلَمَّا رَءَاهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُۥ قَالَ هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّى ﴾ [النمل : ٣٨ـ٤٠] .

وحينما امتن الله على عبده المسيح عليه السلام بالنعم والفضل العميم ، ذكر مسألة العلم : ﴿ إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱذْكُرْ نِعْمَتِى عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَٰلِدَتِكَ إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ تُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا ۖ وَإِذْ عَلَّمْتُكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ﴾ [المائدة : ١١٠] .

وعندما خاطب حبيبه محمداً خاتم الرسل ﷺ ، جاء ذكر العلم في سياق الخطاب : ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا

﴿ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الشورى : ٥٢] .

وعندما حدثنا القرآن الكريم عن وظائف الرسول ﷺ[1] ذكر العلم ، من ذلك قول الله تعالى : ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [آل عمران : ١٦٤] .

كل ذلك يدل وبوضوح على أهمية ومكانة العلم ، لأن سبب تفضيل الله آدم عليه السلام على الملائكة هو ما علمه إياه ، قال تعالى وهو ينقل القصة :

﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوٓا۟ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ قَالَ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِى بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣١﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣٢﴾ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ ۖ فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسْمَآئِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّىٓ أَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ﴾ [البقرة : ٣٠-٣٣] .

وعلق العلامة ابن قيم الجوزية رحمه الله تعالى على هذه القصة بقوله : وبيان فضل العلم من هذه القصة من وجوه :

أحدها : أنه سبحانه رد على الملائكة لما سألوه : كيف يجعل في الأرض مَن هم أطوع له منه فقال : ﴿إِنِّىٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ ، فأجاب سؤالهم بأنه يعلم من بواطن الأمور وحقائقها ما لا يعلمونه ، وهو العليم الحكيم ، فظهر من هذه الخليقة من خيار خلقه ورسله وأنبيائه وصالحي

---

(١) للتوسع يراجع : منهج القرآن الكريم في عرض وظائف رسول الله ﷺ ، للمؤلف : ٩٦-١٥٥ .

عباده والشهداء والصديقين والعلماء وطبقة أهل العلم والإيمان ، من هو خير من الملائكة ، وظهر من إبليس من هو شر العالمين ، فأخرج سبحانه هذا وهذا ، والملائكة لم يكن لها علم لا بهذا ولا بهذا ، ولا بما في خلق آدم وإسكانه الأرض من الحكم الباهرة .

الثاني : أنه سبحانه لما أراد إظهار تفضيل آدم وتمييزه وفضله ، ميزه عليهم بالعلم ، فعلمه الأسماء كلها ، ثم عرضهم على الملائكة ، فقال : ﴿ أَنۢبِـُٔونِى بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ .

جاء في التفسير أنهم قالوا : لن يخلق ربنا خلقاً هو أكرم عليه منا! فظنوا أنهم خير وأفضل من الخليقة الذي يجعله الله في الأرض ، فلما امتحنهم بعلم ما علمه لهذا الخليفة ، أقروا بالعجز وجهل ما لم يعلموه ، فقالوا : ﴿ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ﴾ فحينئذ أظهر لهم فضل آدم ما خصّه به من العلم ، فقال : ﴿ يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ ۖ فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسْمَآئِهِمْ﴾ أقرّوا له بالفضل .

الثالث : أنه سبحانه لما أن عرّفهم فضل آدم بالعلم وعجزهم عن معرفة ما علمه قال لهم : ﴿ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّىٓ أَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ﴾ فعرفهم سبحانه نفسه بالعلم ، وأنه أحاط علماً بظاهرهم وباطنهم ، وبغيب السموات والأرض ، فتعرّف إليهم بصفة العلم ، وعرفهم فضل نبيه وكليمه بالعلم ، وعجزهم عما آتاه آدم من العلم ، وكفى بهذا شرفاً للعلم .

الرابع : أنه سبحانه وتعالى جعل في آدم من صفات الكمال ما كان به أفضل من غيره من المخلوقات ، وأراد سبحانه أن يظهر لملائكته فضله وشرفه ، فأظهر لهم أحسن ما فيه ، وهو علمه ، فدل على أن العلم أشرف ما في الإنسان ، وأن فضله وشرفه إنما هو بالعلم ، ونظير هذا

ما فعله بنبيه يوسف عليه السلام ، لما أراد إظهار فضله وشرفه على أهل زمانه كلهم ، أظهر للملك وأهل مصر من علمه بتأويل رؤياه ما عجز عنه علماء التعبير ، فحينئذٍ قدّمه ومكّنه ، وسلّم إليه خزائن الأرض ، وكان قبل ذلك قد حبسه على ما رآه من حسن وجهه وجمال صورته ، ولما ظهر له حسن صورة علمه وجمال معرفته أطلقه من الحبس ، ومكّنه في الأرض ، فدل على أن صورة العلم عند بني آدم أبهى وأحسن من الصورة الحسية ولو كانت أجمل صورة(١) .

وفي القرآن الكريم إشارات إلى بعض أنواع العلوم :

ففي المجال الطبي تفصيل لخلق الإنسان وتطوره ونموه ، كما في قوله تعالى :

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِن سُلَـٰلَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلْنَـٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿١٣﴾ ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَـٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَـٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَـٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ ۚ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَـٰلِقِينَ ﴾ [المؤمنون : ١٢ـ١٤] .

وفي مجال الفلك : آيات وآيات تحض العاقل على البحث والتفتيش والدراسة ، لأن في الكون أسراراً وأسراراً يجب اكتشافها ، ومن ثم تسخير ما أمكن منها للفائدة العامة ، قال تعالى : ﴿ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ۚ ﴾ [يونس : ٥] .

وفي مجال الجغرافيا إشارات إلى بعض الظواهر : كالجبال والسحاب والبحار ، قال تعالى :

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى مَدَّ ٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنْهَـٰرًا ۖ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ ۖ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [الرعد : ٣] .

وفي المجال الاقتصادي إشارات واضحة ، كالحديث عن الربا ،

---

(١) مفتاح دار السعادة : ١/ ٥٣ـ٥٤ .

والنهي عن كنز الأموال ، والنهي عن الإسراف والتبذير ، وتوثيق العقود المالية ، وتحريم التلاعب بالموازين والمكاييل وغير ذلك ، قال الله تعالى : ﴿وَٱلَّذِينَ يَكْنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [التوبة : ٣٤-٣٥] .

كل هذا غيض من فيض من الحديث المستفيض في القرآن عن مسألة العلوم وأهميتها ، وفيه الدلالات الواضحة للفت العقل البشري إلى التأمل والتدبر والتفكر في هذا الكون الفسيح : ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾(١) [النحل : ١١] .

وفيه أيضاً التنبيه إلى أمر خطير جداً ، وهو التقليد الأعمى ، إذ أن التأكيد القرآني وهو يتحدث عن العلوم ينهى عن تقديس الآباء والأجداد وتقليدهم حتى لو كانوا على الخطأ ، لأن التقليد يعني تعطيل الطاقات العقلية ، وبالتالي فهو تبديد لواحدة من نعم الله تعالى : ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُوا مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَآ أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴿١٧٠﴾ وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ ٱلَّذِى يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَآءً وَنِدَآءً صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [البقرة : ١٧٠-١٧١] .

وهذا يعلمنا المنهج القرآني الرائع حيث الاعتماد على البرهان والحجة ، لا على الظن والأماني واتباع الهوى ، قال تعالى : ﴿تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ [البقرة : ١١١] .

وأما منزلة العلماء فتأتي من خلال مكانة العلم ، بحيث عبّر القرآن الكريم عن هذه الطائفة بقوله : ﴿يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا ٱلْعِلْمَ دَرَجَاتٍ﴾ [المجادلة : ١١] .

قال ابن حجر العسقلاني(ت : ٨٥٢هـ) رحمه الله تعالى في تعليقه

(١) للتوسع في بحث التفكر يراجع كتاب : تفكّر ساعة ، للمؤلف ١٨٥-٢٧٠ .

على هذه الآية : يرفع الله المؤمن العالم على المؤمن غير العالم ، ورفعة الدرجات تدل على الفضل ، إذ المراد به كثرة الثواب ، وبها ترتفع الدرجات ، ورفعتها تشمل المعنوية في الدنيا بعلو المنزلة وحسن الصيت ، والحسية في الآخرة بعلو المنزلة في الجنة[1] .

وهكذا فالعلم يثمر الإيمان ، لأنه يدل على التفكر في آلاء الله ، ويوصل إلى الخشية من الله ، ويكشف عن الحقائق كلها ، قال تعالى : ﴿ وَيَرَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ ٱلْحَقَّ وَيَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ﴾ [سبأ : ٦] ، وقال تعالى : ﴿ وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُوا۟ بِهِۦ فَتُخْبِتَ لَهُۥ قُلُوبُهُمْ ۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [الحج : ٥٤] .

وهكذا فالعلماء هم الذين يفهمون كلام الله ، فتدمع عيونهم ، وتتحرك أفئدتهم ، وتسجد جباههم على الأرض تعظيماً لله سبحانه ، فعن طريق العلم عرفوا الله وقدروه حق قدره ، قال تعالى : ﴿ وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَٰهُ تَنزِيلًا ﴿١٠٦﴾ قُلْ ءَامِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوْ لَا تُؤْمِنُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهِۦٓ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴿١٠٧﴾ وَيَقُولُونَ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴿١٠٨﴾ وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا ۩ ﴾ [الإسراء : ١٠٦ـ١٠٩] .

أجل ، فالعلماء مصابيح على وجه الأرض ، استمدوا ذلك من أنوار العلم ، لأن الله تعالى جعل الحياة والنور في مكان واحد هو العلم ، قال تعالى : ﴿ أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا ﴾ [الأنعام : ١٢٢] ، ويكفي العلماء شرفاً توجيه الله تعالى الناس إليهم ، قال تعالى : ﴿ فَسْـَٔلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [النحل : ٤٣] .

---

(١) فتح الباري بشرح صحيح البخاري : ١/ ٤٤١ .